إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد الحادی عشر – خریف ۱۳۹۲ش/أیلول ۲۰۱۳م
صص ١٤٦ ـ ١٣١

دراسه نقدية لعنصر اللون فی أَشعار بدر شاكر السيّاب الأسود والأبيض نموذجاً

نرگس أنصاری*
طيّبة سيفی**

الملخص

يعـدّ اللون عنصراً هامّاً مـن عناصر الطبيعة والذی لفت انتباه الإنسـان منذ القديم وسـحر روحه، فاهتمّ به الشعراء المعاصرون أكثر من الآخرين؛ لأنّهم عرفوا الألوان المتنوّعة وتأثيرها فتعلّقوا بها تعلّقاً وثيقاً واسـتعانوا بها فی صورهم الشعرية. ومنهم الشـاعر العراقی المعاصر بدر شـاكر السيّاب الذی يعتبر من روّاد الشعر الحر وأكبر الشعراء المعاصرين. إذ تمتلک الألوان خاصة الأبيض والأسود، دوراً هاماً فی أشعار السيّاب، فلذلک تسعی المقالة هذه إلی أن تكشف عن أهمية هذين اللونين فی أشعار هذا الشـاعر المعاصر وتـدرس دلالاتهما المختلفة بعد اسـتخراجهما عن مجموعاته الشـعرية وتحليلهما عبر رسـوم بيانية وجداول تدلّ علی الدلالات المختلفة للللونين وأهميتهما فی معرفة حالات الشاعر النفسية والروحية.

دراسة اللونين فی أشـعار السيّاب تبيّن لنا أن اللون الأسود أكثر استعمالاً فی شعره وهو ممّا يدلّ علی غلبة مشاعر الحزن والكآبة علی روح الشاعر ونفسيته ومن جانبٍ آخر تقارب اللون الأبيض من الأسود فی شعره يكشف لنا عن رجاء الشاعر وأمله إلی المستقبل، إضافةً إلی ذلک أن هذين اللونين يظهران مشاعر الخير والشرّ والحرب والصلح عند الشاعر فی مواطن كثيرة.

الكلمات الدليلية: اللون، الصورة الشـعرية، بدر شاكر السيّاب، اللون الأسود، اللون الأبيض.

---

*. أستاذة مساعدة بجامعة الإمام الخمينی الدوليّة، إيران.
**. أستاذة مساعدة بجامعة الشهيد بهشتی، إيران. T_seyfi@sbu.ac.ir

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. علی الضيغمی
تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٢/٢هـ.ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/٦/٥هـ. ش

المقدمة

إنّ اللــون هــو أول خصوصية يجذب المشــاهدين، فيعجبهم أو يــؤدى إلى حزنهم. يعــدّ اللون فى الأدب «أداة أساســية للتصوير والذى يرتبط توظيفهــا بالزمان والبيئة واللغــة والتراث وإبداع الأديب وذوقه الفنّى وعوامل أخرى.» (درياب، ١٩٨٦م: ٤١) «والتعمّق فى الآثار الأدبية تثبت أن اســتخدام الألــوان فيها ليس من الصدفة، كما لم تستعمل فيها لمجرّد التزيين؛ بل توجد صلة وطيدة بين اللون ومستويات النص البنيوية والبلاغية والتعبيرية.» (عصفور، ١٩٨٣م: ٢٨١)

«إنّ الألــوان التــى تعتبر من الظواهر الواقعية فى الصور الشــعرية تشــتمل تراثاً ثقافياً يحتوى بنية الثقافات الأســطورية والحضاريــة ولها دلالات لغوية.» (محمد على، ٢٠٠١م: ١٩٣) «يتجــاوز دور الألوان عن الدلالة المعجمية إلى المعانى الإيحائية؛ لأنّها من العناصر الحية فى بنية النصّ خاصة عندما تزيدها الأصوات والحركات والموسيقى. إنّ معنى الألوان الدلالية تتغير بناء على حالة الشــاعر النفسية والموقف الذى يتحدّث فيه.» (محمد عبيدات، ٢٠٠٤م: ٣١١) إذا اهتم الكتّاب والأدباء العرب والشــعراء منهم خاصة إلى الألوان واســتعانوا بها فى صورهم الشــعرية وبما أن اللون يعدّ عنصراً هاماً فى بنية القصيدة الفنّية ويلعب دورا هاماً فى تكوين صورها الشــعرية وكما نجد الكثير من التشــابيه والاستعارات والكنايات قد بنى على التوسيع فى معانى الألوان، فكانت هــى عنصراً من العناصــر المكوّنة للصور من القــديم والأدوات الفنية التى كانت تزيد القصيدة جمالاً.

أما الشــعراء المعاصرون فيعتنون بالألوان عناية بالغةً لما فيها من أنواع ولعلمهم بها ولتعمّقهــم فــى عناصر العالم منها الألوان. وممّا يجدر بالعنايــة الأكثر هو أنّ اللون كيف يرتبط بالعالم الذى يخلقه الشاعر ويؤثر على شعريّته وخياله.

واللونين الأســود والأبيــض يعتبران من الألوان الأولى التى تعرّف عليهما البشــر ولهما دلالات مختلفة، فيحتلّان مكانة خاصة فى أشــعار الشــعراء لاسـّيما المعاصرين ومنهم الســيّاب الذى يعدّ من روّاد الشــعر الحر، وقد تميّز شعره بميزة خاصة باستخدام الألوان.

خلفيّة البحث

هناک بحوث سبقت هذا البحث بصورة عامة، منها ما قام بدراسة الألوان فى الصور الشعرية فى الشعر الجاهلى خاصة بعض المعلقات کـ "الأساس الواقعى لجماليات اللون فى شعر الأغربة" لخالد زغريت و"اللون فى الشعر العربى قبل الإسلام قراءة ميثولوجية" لإبراهيم محمد على و"اللون فى القصيدة العربية" لمحمد حافظ دياب. كما يتناول بعض المقالات المطبوعة داخل البلد أيضاً أشعار المعاصرين ومنها ما نشرناها فى المجلات المحكّمة کـ"دلالتهاى نمادين رنگ سبز در شعر حجازى" و"زيباييشناسى رنگ آبى در أشعار عبد الوهاب البياتى" وغيرها. وقد عالج مرتضى قائمى فى مقالته "كاربرد رنگ در تصويرپردازيهاى محمود درويش" والتى نشرها فى مجلة "أدب المقاومة" فى كرمان أشعار هذا الشاعر الفلسطينى. هناک مقالة أخرى عنوانها "عنصر رنگ در رمزگرايى محمود درويش" لمنصورة زركوب، إلا أنّ المقالة هذه تناولت ولأول مرة دراسة اللونين الأبيض والأسود فى شعر السيّاب بأسلوب إحصائى ودراسة نقدية تحليلية. لأن اللونين قد اتّخذا دلالات متنوعة مختلفة فى شعر الشاعر فيزيدانه جمالاً وفنّاً. إضافة إلى ذلک ثمّة أسباب جغرافية وذاتية فى حياة السيّاب تؤثر عليه فتدفعه إلى أن يستخدم اللون بمعانيه المعجمية والرمزية والإيحائية متأثراً بما واجهه من الحوادث المرّة فى مراحل حياته الشعرية. المعانى التى قد تتّخذ دلالات متضادة لا يمكن فهمها وتحليلها إلا بمعرفة حالاته النفسية والروحية. فلذلک تطرقت المقالة هذه إلى دراسة وتحليل الأشعار التى استخدم فيها السيّاب اللونين مع دلالاتهما ومعانيهما الرمزية وغيرها بعد مقدمة تمهيدية عن حياة الشاعر ومراحلها المختلفة وهى التى تسبب الدلالات الرمزية فى أشعاره، ثم نواصل دراسة الأشعار وما فيها من اللونين الأسود والأبيض ونقوم بتحليلها وفقاً لأسباب وعوامل مختلفة ذاتية واجتماعية وسياسية مضافاً إلى ذلک الجدول الإحصائى الذى يبيّن كمية استخدام اللونين فى أشعار الشاعر.

نظرة عابرة إلى حياة الشاعر

إن تجربة الشاعرالشعرية فى حياته الذاتية والاجتماعية تؤثّر على مشاعره وتؤدّى

إلى إنتاج الشعر، فلذلک يجب علی الدارس أن يعرف ما مرّ به الشاعر من مختلف التجارب خاصةً فی العصر الحاضر؛ لأن المعاصرين من الشعراء أكثر استقلاليةً من غيرهم، يستخدمون الشعر كأداة للتعبير عن أحاسيسهم ومعتقداتهم. «فالأحداث السياسية والاجتماعية تمّت بصلة وثيقة بالمفردات التی يختارها الشاعر فی معجمه الشعری خاصة الألوان والسيّاب لا يستثنی من ذلک بل دراسة حياته ضروری لاتصال شعره بمراحل حياته المختلفة. فأشعاره تعكس حزن بلاده العراق خاصةً وبلاد العالم الثالث.» (بيضون، ١٩٩١م: ١١)

ولد بدر شاكر بن عبد الجبار بن مرزوق السيّاب سنة ١٩٢٦م فی قرية "جيكور" الواقعة بجنوب العراق؛ ماتت والدته فی السادسة من عمره، فتولت شأنه جدتّه بعد أن تزوّج والده من زوجة أخری. قضی دراسته الابتدائية فی العراق فقصد البصرة ليواصل دراسته. كان السيّاب ينشد الشعر منذ المرحلة الابتدائية. التحق سنة ١٩٤٣م بمعهد المعلمين ببغداد واختار العربية للدراسة، لكنّه انصرف عن الدراسة بعد عامين واشتغل بدراسة اللغة الإنجليزية وهو تأثر بإليوت الشاعر الإنجليزی الشهير. اشتهر السيّاب بأنه من روّاد الشعر الحر وكان أوّل تجربته الشعرية فيه قصيدته "هل كان حباً" فی عام ١٩٤٧م. كانت لحياة الشاعر المضطربة بالغ التأثير على شعره. يمكن أن نقسّم حياته إلى مراحل أربعة:

١. المرحلة الرومانسية: (١٩٤٣م –١٩٤٨م) فالأحداث المرّة التی شهدها الشاعر خلال هذه السنوات فی حياته الأسرية جعلته يتمسک بعالم الخيال والرؤيا بعد أن رفض الواقعية. فيمتاز شعره فی هذه المرحلة بمحاكاة القدماء كما كانت النشاطات الشيوعية قوية فی العراق، فالتحق بها كثير من الشباب العراقيين منهم السيّاب.

٢. الواقعية: (١٩٤٩م – ١٩٥٥م) تغيّر فيها نزعة الشاعر نحو الحياة الاجتماعية فتحوّل شعوره الفردی إزاء المصائب إلى شعور جماعی فقصائده "فجر السلام"، و"أنشودة المطر"، و"الأسلحة والأطفال"، و"المومس العمياء" تعكس هذا الشعور.

٣. التموزيّة أو الواقعيّة الحديثة: (١٩٥٦م – ١٩٦٠م) يتمسّک الشاعر فی هذه المرحلة بعالم الأسطورة والرمز ليحفظ نفسه من الضغوط السياسية فيعبّر عمّا يشاهد

فى واقع حياته بالرمز منها قصائده: "مدينة بلامطر"، و"جيكور" و"المدينة".

٤. الذاتيّة أو العودة إلى الذات: «تبدأ من ١٩٦١م عندما يصاب الشاعر بالمرض إلى أن يفارق الحياة فى ١٩٦٤م. يميل الشاعر فيه إلى الذاتية. كان شعره متأثراً بما كان يعانى الشاعر من الفقر والمرض فيعود إلى ماضيه للخلاص من مشاكله فيذكر ذكرياته الماضية، ويشكو من الدهر و... فالأفكار هذه تتجلى فى دواوينه الثلاثة "المعبد الغريق"، و"شناشيل ابنة الجلبى"، ومنزل الأقنان".» (بلاطه، ٢٠٠٧م: ١١٩-٨١؛ عباس، ١٩٨٣م: ٩٩- ١٧؛ توفيق، ١٩٧٩م: ١١٦- ٤٥؛ سيّاب،٢٠٠٠م: ٣٤- ٥)

- دراسة الألوان فى شعر بدر شاكر السيّاب

- اللون الأسود

الأسود ما ليس فيه لون ولا ضوء يعادل الليل والظلام ومن أهم خصائصه أنّه لون «فيه الصمت والسكون وعدم الحركة و بما أنه يؤثّر فى خمود الجسم والروح يسبّب الخمول وتقليل النشاط.» (أكبرزاده، ١٣٧٥ش: ٧٩) «يرمز الأسود إلى الحزن والخوف والخفاء والغموض والسرّ والموت والوحشة والقلق كما أن البعض يراه لون الشيطان وهو لون الجريمة والسرقة كما أنّه لون المأتم والحداد واستخدام مفردات: العام الأسود، والمجاعة، والثوب الأسود يدلّ على تأثيره السلبى.» (شى جى وا، ١٣٧٧ش: ٢٩)

الأسود من أوضح الألوان فى أشعار السيّاب وأكثرها استعمالاً ولها دلالات مختلفة يدلّ عليها النظام الشعرى. الحزن والظلم واليأس من أوسع الدلالات الرمزية للون الأسود فى شعره فقد استخدمه الشاعر تأثّراً بمجتمعه وبيئته أو استخدمه من أجل خصائصه النفسية فى الإقبال على هذا اللون؛ لأنه شاعر حزين مهموم ومرجع حزنه هذا هو المصائب التى تحملها الشاعر فى طفوليته كما يعود إلى عدم نجاحه فى الحبّ أيضاً وبما أنّ الشاعر يميل إلى الاجتماعية فى المرحلة الواقعية من حياته (١٩٤٩م- ١٩٥٥م) فيتضمّن شعره مضامين الفقر والجوع عند شعبه والظلم الذى كان يسود على أرجاء مجتمعه الذى كان يتنازع بين السنة والحداثة والتجدّد والقديم، فانعكس كل هذا فى شعر شاعر مبدعٍ كالسيّاب. كما كان مرضه الذى أصيب به فى نهاية عمره سبباً هاماً

فى استخدامه الأسـود ليرمز إلى ما يدور فى ضميره من الآلام والهموم. فالليل الذى من أكثر الرموز الاجتماعية فى شعره يدلّ على ما نقول، فأصبح الأسود فى شعره رمزاً للظلمة والظلم والحزن واليأس:

«يا وفيفة/ والحَمامُ الأسـود/ يالَهُ شلالُ نورٍ مُنطَفِى/ يالَهُ نَهرُ ثِمَارٍ مِثلَهَا لَم يقطِف.» (سيّاب، ٢٠٠٠م: ٩٣/١)

إن الفشل فى الحبّ والحزن الذى ألمّ به إثره، دفعه إلى أن يرى حبيبته حمامة سوداء وهى «رمز الظلمة والضياع والحزن.» (الصائغ، ٢٠٠٣م: ١٢٧) فالحزن الذى غلب على الشـاعر إثر ضياع الحبيب والفراق عنه، جعله ليسـتعين بدلالة الأسود الرمزية، فيصفه حماماً أسود والنور المنطفئ والثمر الذى لم تقطفه يد الشاعر.

كما فقد الشـاعر فـى طفوليّته حنان الأم، فبدأ يبحث بدلـه عن علاقة مع كثير من الفتيات إلاّ أنّها باءت بالفشل كلّها فتكدّر حياة الشاعر خلال هذه السنوات التى تمتاز بالحرمان فيسرى الأسود إلى شعره ليدلّ على حزنه وألمه:

«مَضَت عشرٌ من السنوات، عشرة أدهُر سُود.» (سيّاب، ٢٠٠٠م: ١/ ١٠٧)

فهو يهرب من الليل الذى يذكّره بأحزانه ويبعث فى نفسه الخيفة والألم والهمّ فيطلب الشمس ألاّ تغرب:

«قِفـى، لاتَغرِبِى، يا شَمسُ، ما يأتى مَعَ اللَّيل/ سِـوى الموتى. فَمَن ذا يرجِعُ الغائبَ للأهلِ/ إذا ما سَدَّت الظَلمَاءُ/ دَروبَا أثمَرَت بِالبَيتِ بَعدَ تَطاوُلِ المَحل؟/ وإنَّ الليلَ تَرجِفُ أكبُدَ الأطفالِ مِن أشباحِه السوداء.» (المصدر نفسه)

وعندما يخيّم على شعره أجواء الألم من المرض والغربة والفراق عن الأحبة والأسرة فى آخر عمره، يجد حياته سوداء تشبه الليالى التى تمرّ به فى مدينة لندن بليالى الموت. والسهر والبرد (وهو رمز الحياة الغربية) والضجر يدل على احتضاره فى الغربة، فلذلک يتمـنّى أن يعود إلى وطنه ليتنفّس من هواء وطنه ويلمس جسـمه ترابه وينحدر ماؤها كالدّم فى عروقه وأخيراً يأمل أن يدفن فى تراب وطنه:

«فى لندنَ، الليلُ موتٌ نَزعُهُ السَّهَرُ/ والبَردَ والضَجرُ/ وغربةٌ فِى سِوادِ الليلِ سوداءُ/ يا ربِّ يا ليتَ أنّى لى إلى وطنِى/ عودٌ لِتَلثِمَنِى بالشـمس أجواءُ/ مِنهَا تنفّست روحى:

طينهـا بدّنـى/ وماؤها الدمُ فى الأعراق ينحـدرُ/ يا لَيتَنى بَينَ مَن فـى تُربِهَا قُبِروا.» (المصدر نفسه: ١٥٣/١)

وعندما يتحوّل السـيّاب من شاعر رومانسى إلى شـاعرٍ ملتزمٍ اجتماعيٍ يستخدم شـعره لبيان أغراضه السياسـية والاجتماعية والمشـاكل الإنسـانية، فلشعره فى هذه المرحلة أهمية خاصة، يتّخذ الألوان مضامين ودلالات جديدة. أما الأسـود، فيدلّ على ظلم الحكام المسـتبدّين على البلاد والدّمار الذى تسببّه الحرب فهو واضح فى قصيدة "فجر السـلام" التى يقابل الأسـود فيهـا الأبيض وهو تقابل الحرب والسّـلام والخير والشـرّ. فيحاول الشاعر أن يسـتخدم كلّ آليات الكلام ليصف جمال السّلام وما يتأتّى على الحرب من مظاهرها وأنّها كيف فتحت فاهها لتأكل كلّ ما يقابلها:

«شَـدقٌ يزيدُ اتسَـاعا كلّ مَا رُفِعَت/ سِترُ الدُّجَى خَفَقَت مِن كوكبٍ غَربَا/ آلَى على الأرضِ أن يجتَثَّ عَالِيهَا/ سَـفلا وَيصفَعَ مَن يأتِى بِمَن ذَهَبَا/ وَلا يريقُ دَما إلا وَأضرَمَهُ/ نَارَاً وَ ذَرَّى رَمَادا مِنهُ أو لَهَبَا.» (المصدر نفسه: ٤٤٩/٢)

وقد يحصى الشاعر آثار القنابل الذريّة من الدّمار والهلاك والموت محاولاً أن يقارن بين خوفه عنها وبين قصة قابيل الذى يرمز إلى إنسان ظالم سفاك:

«ظَلَّ لِقَابِيلَ ألقَى عَبءَ ظُلمَتِهِ/ فَحمَا يسُودُ البَرَايا حَولَهُ القَلَقُ.» (المصدرنفسه)

ثمّ يصف الظلام والسـواد الذى سيطر على العالم إثر هذه الجرائم مشيراً إلى الطفل الرضيع الذى أصيب بالجنون إثر انفجار قنبلة وهو يعدو:

«وَانقَضَّ- مِن حَيثُ تَهوَى الشَـمسُ غَارِبة -/ ليلٌ مِنَ القَاصِفَاتِ السُودِ أو شَفَق/ جَنَّ الرَضِيعُ الذِّى يحبُو وَهَبَّ على/ رِجلَيهِ يعدو وَيلوِى جِسَـمهُ العُنُق.» (المصدر نفسه: ٤٥٠)

يتحدّث الشـاعر عن أولئک الذين يرغبون السّـلام والصداقة ويريدون أن يسـود ذلک فى أرجاء العالم، كأنهم يطلقونه كحمامة بيضاء فى السماء:

«هذِى اليدُّ السَمحَةُ البَيضَاءُ كم مَسَحَت/ جُرحَا وَكم أزهَقَت أنفاسَ جَبَّار/ وَأطلَقت فِى الدُّجَى الأعمى حَمَامَتَها/ بَيضَاءَ كالمَشعَلِ الوَهَّاجِ فِى غَار.» (المصدرنفسه: ٤٤٧)

إلاّ أنّ جهدهم يخفق ولايتحقّق آمالهم فى انتشارالسلام إلاّ بالثورة والقيام ضدّ الرقّة

والعبودية وانهيار الطاغوت التى تشبه فى ظلامه بالليل فيستيقظ بذلک الشعوب من الغفلة خاصة الشعوب الشرقية:

«لَيلُ العُبُودِيةِ النَّكراءِ صَدعُهُ/ مَهَوى طَوَاغيتَ واستِبسالُ ثُوَّار... .» (المصدر نفسه: ٤٥٣)

وفى قصيدته "الأسلحة والأطفال" يتحدّث السيّاب عن الذين يتجرّون الموت ويعطون الهلاک والدّمار للبشرية بتجارتهم الأسلحة والآلات الحربية فيسيطر على شعره أجواء الموت باستخدامه كلمات الدّم، والنّار والدّخان إضافة إلى اللون الأسود:

«يحُوک الرَّدى غَزلَهُ الأسودا/ دَمَاً أو دُخَاناً، يحُوک الرِّدى/ شُبَاكاً مِنَ النَّار حَولَ البُيوت/ عَلَى صَبيةٍ أو صَبَايا تَمُوت.» (المصدر نفسه: ٣٠٣/١)

يمتاز شعره باستخدام الأسطورة خاصة الأساطير اليونانية، فقد يوّفق الشاعر بين معناه المقصود وما يدلّ عليه الأسطورة واللون والمفردات الأخرى وكأنّه يضفى شعره لوناً من الجمال والإبداع:

«تَموزُ يُموتُ عَلَى الأفق/ وتَغُور دِمَاه مَعَ الشَفق/ فِى الكهفِ المُعتَم، وَالظَلمَاء/ نَقالة إسعَاف سَوداء/ وكأنَّ الليلَ قطيعُ نساء؛/ كحلٌ وعباداتُ سُود/ الليلُ خِبَاء/ الليلُ نهَار مَسدُود.» (المصدر نفسه: ١٨٧/١)

فيرمز التموز هنا إلى «الخصب والحياة وموته موتها.» (عباس، ١٩٨٣م: ٢٤٧) فيحاول الشاعر أن ينتقل من وصف الذبول والموت فى الطبيعة ونضارتها إلى ما يعانى شعبه من الجوع والفقر. فالانسجام بين الأسطورة (موت التموز) ومفردات: (المعتمّ، والظلماء، والكحل) يرسم أمام المخاطب صورة الحزن والألم والخوف عند الشاعر.

وقد يتأثّر الشاعر بتراثه الأدبى ويجعل الأسود لون الحداد والمأتم فيقول فى رثاء شهيد من الشهداء:

«شهيد العُلا لن يسمَع اللومَ نادبُه/ وَليسَ يرَى باكيه مَن قَد يعاتِبُه/ طَوَاهُ الرِّدى فَالكون لِلمَجدِ مَاتم/ مَشَارِقُهُ مُسوَدَّةٌ وَمَغَارِبُهُ.» (سيّاب، ٢٠٠٠م: ٤١٠/٢)

فيلبس المشرق والمغرب فى فقدانه ثوب المأتم وهو الأسود. وقد يدلّ بنية الكلام

على أنّ اللون الأسود جاء بمعنى الموت ذاته، ففى قصيدته "رحل النهار" تحدّث الشاعر عن رحيل سندباد (رمز الثورة والحريّة والمغامرة) الذى لايعود وعن رحيل النهار (رمز النور والضياء):

«رَحَــل النَّهَار/ هَا إنَّه انطَفَأت زُبالتــه عَلَى أفُق توهَجّ دونَ نَار/ وَالبَحرُ يصرُخُ مِن وَرائک بالعَواصِفِ وَالرُّعُود/ هَو لَن يعُود/ أوَ مَا علمتِ بأنَّه أسَرَتهُ آلهَةُ البِحَار/ فِى قلعةٍ سُــوداءَ فِى جَزَرٍ مِنَ الدَّمِ وَالمَحَار/ هُوَ لَن يعُود/ رَحَلَ النَّهار/ فَلتَرحُلى هُوَ لَن يعُود.» (المصدر نفسه: ١٤١/١)

فيكشــف النهار والســندباد فى شعر الســيّاب عن ثورة وحريّة وأمل فى مجتمع أو بيئة خاصة، لكنّه أســر فى قلعة سوداء أحاطها الدّم. فهذه الصورة التى يرسمها الشاعر يدلّ على فشل الثورة وخمود ضوء الأمل فى المجتمع فيغطّى الأفق بالعواصف والرّعود ويســيطر على القصيدة أشــكال الموت والخوف. واللون الأسود يقوّى معنى الشعر وهو الموت:

«الأفقُ غَابَاتٌ مِنَ السُحُبِ الثَقيلةِ وَالرُعُود/ المَوتُ فِى أثمَارِهِ وَبَعضِ أرمِدةِ النَّهار/ الموتُ مِن أثمَارِهنَّ وبعضِ أرمِدةِ النَّهار/ الخَوفُ مِن ألوانِهنَّ وبعضِ أرمدةِ النَّهار/ رَحَلَ النَّهار/ رَحَلَ النهار.» (المصدر نفسه)

وممّا يجدر بالذكر أن الشاعر يلحّ على رحيل امرأة تنتظر مجيئ سندباد من سجنه فى القلعة السوداء والسحب التى تمطر الموت على الأرض فيبدو أن الشاعر يقصد من المرأة مجتمعاً متحضرة يتلاشــى أركانه برحيل الســندباد ورحيل النهار منها. وربّما تدلّ القلعة الســوداء على المصائب التى توجد فى طريق عود النهار والســندباد (أى عود الحريّة والحياة والأمل) إلى هذه المدينة لبناء حضارة جديدة متقدّمة.

ويتّضح ممّا قيل أن للأســود دلالات ســلبية فى شعر السيّاب وهو ليس بغريب، لأنه يحكى خصائص الشــاعر النفســية والروحية وممّا يجب الانتباه إليه أن الأسود يستخدم أحياناً بمعنى الجمال والحسن فى وصف المرأة وما بها من جمال. فالمرأة فى البيئة العربية ترمز إلى الجمال، توصف بشعرها الأسود وعيونها السوداء وهذا اللون اتصل فى شعر السيّاب بأحبّته متأثراً فى ذلک بتراثه الأدبى القديم:

«مَاذَا تُريدُ العيونُ السُـودُ من رَجُلٍ/ قَد حَاشَ زَهرُ الخَطَايا حينَ لاقَاهَا.» (المصدر نفسه: ٢٠١/١)

«عِينَانِ سُـوداوانِ أصفى مِن أمَاسِـى اللِّقاء/ وَأحبُّ مِن نَجـمِ الصَّباحِ إلى المَرَاعِى وَالرُّعَاء.» (المصدر نفسه: ٥٥/١)

«عَطَّرتُ أحلامِى بِهذَا الشَّـذى/ مِن شَـعرِك المُستَرسِلِ الأسـود.» (المصدر نفسه: ٦٣/١)

والأخير عن اللون الأسـود فى شـعر السيّاب أنّه اسـتخدم صريحاً كما تدلّ عليه مفـردات: الليل، والدّخـان، والظلمة، والديجور، والغـبراء، والرّماد، والحزن و... وغير مباشر.

اللون الأبيض

والأبيـض من أهمّ ميزاتـه أنّ «له كيفية إيجابية مهيّجة، ومضيئـة، ولطيفة ودقيقة.» (على أكـبرزاده، ١٣٧٥ش: ٧٨) ومن أبرز معانيه الرمزية الطهارة، والعصمة، والبراءة، والفرح والانتصار. الأبيض يرمز إلى السّلام ونهاية الحرب، فلذلك راية السلام بيضاء، لأنها «علامة التسـليم، ومتاركة الحرب، والصداقة وحسن التفاهم.» (كوپر، ١٣٧٩ش: ١٧٢) وهو يخالف السواد والظلمة ويقابل الليل كالنهار. الأبيض لون يحبّه القلوب، لأنّه يبعث الأمل ويسبّب المحبّة والودّ إلى أن يتداعى الطهارة والبراءة والتفاؤل.

يحتلّ الأبيض المكانة الرابعة فى أشـعار السـيّاب بين الألوان التى استخدمها وهو أيضاً جاء بصورة صريحة وغير صريحة. والسيّاب شاعر يأمل السعادة والسلام والنصر للشعب العراقى رغم ما كان يعانى هو وشعبه من الحزن والألم فاستعان باللون الأبيض للتعبير عن السّـلام والأمل والحريّة. فعندما يصوّر الحرب بين المستعمرين يراهم تجاراً يشعلون نار الحرب ويقطعون أيدى الشعوب السمحاء فيقول:

«هَذِى اليدُ السَـمحَةُ البَيضـاءُ كم مَسَـحَت/ جُرحَاً وَكم أزهَقَت أنفـاسَ جَبَّار.» (السيّاب، ٢٠٠٠م: ٤٤٧/٢)

يصف أيديهم وهى بيضاء تمسح الجروح وتهلك المستبدين. فهذه الأيدى هى تنادى

بالسّلام والصداقة فى العالم لأنّه يواصل قائلاً:

«وأطلَقَت فِى الدُّجَى الأعمَى حَمَامَتهَا/ بَيضاءَ كالمَشـعلِ الوَهَّاج فِى غَار.» (المصدر نفسه)

فالأيدى البيضاء تطلق الحمامات البيضاء فى العالم الذى يسـيطر عليه ظلام الظلم كمشـعل يضيئ الطريق أمام البشرية. فالحمامة البيضاء ترمز إلى السّلام والودّ والحريّة كمـا يعبّر الدكتور الصائغ أنّ «للأبيض إيحاءات وإشـارات مختلفـة يدلّ على البراءة والطهارة كما يدلّ على الخير والسلام.» (الصائغ، ٢٠٠٣م: ١١٨) فقد استخدم السيّاب الحمامة البيضاء للدلالة على السّـلام فى بلده العراق والذى يضمّن السعادة والرفاهيّة لشعبه ويضيئ لهم الطريق ويخرجهم من الظلمات. فالعبارة "الدّجى الأعمى" يمثّل الظلم والفسـاد والدمار والحمامة التى حلّقت فى سماء بلاد العالم الثالث، ولطمت على وجه الظـلام وهى تمهّـد الطريق للفجر والانتصـار وكذلک يصوّر التضـاد الدائم بين الخير والشر، والبياض والسواد، والحرب والسّلم فى شعر السيّاب ويؤكد على ايمان الشاعر بالوصول إلى النصر لأنّه يذكر آثار السّلم بتعبيرات مختلفة:

«كأنَّمَـا فَجَّرَت مَاء لِظَامِئَة/ أو أطلَعَت كوكبَا يأتَمُّ السَـارِى.» (السـيّاب، ٢٠٠٠م: ٤٤٧/٢)

اسـتخدم السـيّاب مصطلح "اليد البيضاء" فـى قصيدة أخرى يعـبّر عن اتجاهاته الشيوعيّة ويصف فيها بطولات الشباب وأصدقائه:

«حركتَ فِى المُسـتَقبَلِ الدَّاجِى يداً/ بَيضَاءَ تَمسَـُح أدمُعَ البُؤَسَـاء.» (المصدر نفسه: ٤٩٧/٢)

كان يعتقد الشاعر أن الشيوعية يحقّق النصر للعراق ويخلّص الشعب من الاستعمار، فيصف يدها بيضاء وهى تحاول أن تحفظ الضعفاء فى مسـتقبل العراق المظلم والأسود، تمسـح الدموع من عيون البؤسـاء وتهب السـعادة للشـعب العراقى عندما تغلب على أعدائهم المستعمرين.

وقد استعمل اللون الأبيض فى التراث الأدبى القديم للدلالة على الجمال كالأسود. فاسـتخدمه العرب للتعبير عن جمال المرأة لأنها كانت محبوباً عنده كما وصف الله تعالى

المرأة فی کتابه بصفة البیضاء:

﴿کأنَّهُنَّ بِیضٌ مَکنُون﴾ (صافات: ٤٩)

فانعکس ذلک أیضاً فی أشعار الشاعر واستفاد من اللون الأبیض لوصف المرأة منها:

«وَاهاً لأجسَادِ الحِسَان! أ یأکلُ اللیلُ الرَّهیب/ وَالدُّودُ، مِنهَا، مَا تَمَنَّاه الهَوَی؟.» (السیّاب، ٢٠٠٠م: ١/ ٢٨٨)

وقد یضیف المعنی الرمزی إلی المعنی الجمالی ویدل علی الطهارة والبراءة فی المرأة أیضاً:

«هِی الَّتِی بِالأمسِ کانَت کمَا/ رَجَی خَیالٌ لِلهَوی الأوَّل/ یُوجُ فِی مِرآتِهَا ظِلُّهَا/ سوسَنَةً بیضَاءَ فِی جَدوَل.» (المصدر نفسه: ٤٤٩/٢)

«فرأی الشاعر وجه المرأة سوسنة حسناء، أما اللون الأبیض فقد زاد الصورة جمالاً وخیالاً وذلک لأنّ اللون یعدّ من العناصر الهامة فی خلق التشابیه والاستعارات والصور الحسیّة والمتحرّکة.» (شفیعی کدکنی، ١٣٧٠ش: ٢٧١) وفی قصیدة أخری یخاطب الشاعر حبیبته مشبهاً أقدامها البیضاء وسط الأعشاب الخضراء بفراشة بیضاء، فالتشبیه هذا یدلّ علی جمال المحبوب إضافة إلی براءتها وطهارتها:

«أینَ مِنهُنَّ خَفقُ أقدَامِک البَیضَاءِ بَطنَ الحَشیشِ فَوقَ اخضِرارِه/ مِثلَ نَجمَتَین أفَلَتَا مِن مِدارَین/ فَجَالَ الضِّیاءُ فِی غَیرِ دارِه/ أو فَراشَین أبیضَین استَفَاقَا یسرِقَان الرَّحِیقَ مِن خُمَارِه.» (السیّاب، ٢٠٠٠م: ٨٣/١)

وأحیاناً یستعین الشاعر بالنور الذی یدلّ علی اللون الأبیض غیر مباشرٍ لوصف ما فی حبیبه من الحسن والجمال:

«کم عَاشِقٍ کانَت أمانِیُه أنْ/ یرتَشِفَ النورَ عَلَی جِیدِهَا.» (المصدر نفسه: ٢٥٣/٢)

وقد تدلّ النجوم علی اللون الأبیض والذی یستخدمها الشاعر لوصف جمال المرأة وهی أیضاً تدلّ علی البراءة والطهارة فیها:

«أنتُنَّ أسعَدَ ما أظَلَّ الکونَ یا زهَرالنُجُوم/ أنتُنَّ أبصَرتُنَّ ذاک الوَجهَ فِی اللیلِ البَهیم.» (المصدر نفسه: ١١١/١)

وفى قصيدته "ليلةالقدر" تأثر الشاعر بسورة القدر ويصف فيها أجنحة الملائكة بيضاء تعبيراً عن صفاءها وطهارتها أيضاً:

«لَيلَةَ القَدرِ نُوراً أضَاءَ لَنَا/ قاعَ السَماءِ فَأبصَرَنا مَدى عَجَبا/ تَنَزَّلَ الرُّوحُ رِفَافَا بِأجنِحَة/ بِيضٍ عَلَى الكونِ أرخَاهُنَّ أو سَحَبَا.» (المصدر نفسه: ٥٣٤/٢)

وقد يلازم الأبيض حركة المياه لما فيها من الهدوء والطمأنينة ليقصد الشاعر منها إلى الراحة والرفاهيّة والهدوء الذى يلازم حياته فيصف جدول ماء أحاطته الغمائم البيضاء وهى تسير هادئاً مع خرير المياه:

«وَأغِيبُ فِى نِغَمٍ يذُوبُ.. وَفِى غَمَائِمَ مِن عَبِير/ بَيضَاءَ مِكسَالِ التِلَوى تَستَفِيقُ عَلى خَرِير.» (المصدر نفسه: ٦٣/١)

ويمكن أن نقول إنّ الأنهار التى كانت تجرى فى قرية الشاعر تلهمه هذه الصورة فهى إذن ترتبط بحياته الذاتية وهدوءها وسكونها.

تتّصف الأمور المعنوية كالحسيّة بالألوان فى أشعار السيّاب منها "الرؤى" التى يراها الشاعر بيضاء:

«خَيالُک أضَحى لابِسَا مِن فؤاديا/ رداء مُوَشّى بالرؤى البِيضِ حَالِيا.» (المصدر نفسه: ٤١٥/٢)

يخاطب الشاعر هنا خيال حبيبته ويصفها بيضاء «ليرسم صورة جميلة منها، لأنّ قلبه يبدّل إلى رداء ملوّن بخيال المحبوب البيضاء التى تلبس هذا الرداء.» (آل موسى، ٢٠٠٨م: ٤٦٣) فطهارة المحبوب وبراءتها هى التى تدفع الشاعر ليصف خيالها بيضاء كأنّه يأمل أن تتحقّق تلک الرؤى. فقد صوّر الشاعر الأمور المعنوية ملوّنة ليجعلها محسوساً ملموساً للمخاطب.

يتّخذ اللون الأبيض دلالة سلبية فى أشعار السيّاب إضافة إلى دلالاته الإيجابية، فيدلّ على اقتراب الموت والانفصال عن الدنيا وفراقها وذلک بأن يرتبط الأبيض بالشيب ويذكر السيّاب إلى جانب ذلک أمارات الشيخوخة الأخرى من العصا:

«والمَرءُ لايمُوتُ إن لَم يفتَرِسُه فِى الظِّلام ذِيب/ أو يختَطِفهُ مَارِد، والمَرءُ لا يشِيبُ/ فَهَكذا الشُيوخُ مُنذُ يولَدون/ الشَعرُ الأبيضُ وَالعَصَى وَالذُوقُون.» (المصدر نفسه: ١٠٣/١)

الجدول الإحصائى للونين الأسود والأبيض فى أشعار السيّاب:

اللون	البواكير	قيثارة الريح	أعاصير	أزهار وأساطير	فجر السلام	أنشودة المطر	المعبد الغريق	منزل الأقنان	شناشيل ابنة الجلبى	هدايا	الكمية
الأسود	٢	٨	٦	٦	٢	٢٣	٦	٣	٨	٢	٦٦
الابيض	٢	٥	١	٥	٤	٩	٦	١	٥	٥	٤٢

إنّ الأعداد المذكورة فى الجدول تدلّ على غلبة الأسود على الأبيض فى أشعار السيّاب والصور الشعرية التى استخدم فيها الشاعر هذين اللونين بكميتهما المختلفة تبيّن أنّه كان قد نفر الأسود باحثاً عن البياض والفجر والصبح.

«قال علماء النفس عن الأسود بأنّه ينفى ذاته وهو رمز يتوقّف عنده الحياة ويوحى الهلاك والخلاء وهو يقابل البياض الذى يشبه صفحة فارغة تكتب عليها القصة، لكنّ الأسود هو النقطة الأخيرة لها ولايوجد وراءها شيئ. والشخص الذى يختاره كأنّه ينفى كل شيئ ويعترض بما يجرى حوله لأنّ الحياة والظروف ليست كما يريد هو فيقف أمام مصيره.» (لوشر، بيتا: ٩٧-٩٨)

اشتهر شاعرنا السيّاب بشاعر الوجع لما شاهد من آلام الفقر والجوع والمرض طوال حياته التى كانت مليئة بالهموم النفسية كما وجد ما كان يعانى شعبه من الحزن والمشاكل لأجل الاستعمار والحكّام الظالمين فاختار الأسود تعبيراً عن تلك المعانى والظروف التى تبيّن اشمئزاز الشاعر منها وهى واضحة فى أشعاره.

ومن جانب آخر إنّ النماذج الكثيرة من اللون الأسود إلى جانب المفردات التى توحى بالسواد غير مباشرة مثل الليل والظلام وغيرها تدلّ على أن الشاعر يحتاج إلى الهدوء والطمأنينة والخلاص من المشاكل؛ «لأن الإنسان مهما كانت حاجته بالهدوء أكثر كان ميله إلى الألوان الداكنة أكثر غريزياً وعكس ذلک أنه إذا أراد أن يطلق طاقاته

بالعمل أو النشـــاط الذهنى يميل إلى الألوان الفاتحة.» (المصدر نفسه: ٢٦) كما أن كميّة استخدم الشاعر للَّون الأبيض دليل على عدم يأسه من الحياة بل هو يأمل الفرج.

النتيجة

ومن مستجدات البحث هى ما يلى:

أنّ الأســود عند الشــاعر يعدّ من أهم الألوان وأكثرها اســتعمالاً ولعلّه ينبعث من حياته الذاتية وما عانى فيها من الآلام والهموم كما يرجع إلى التزامه الاجتماعى. كان الســيّاب يتألّم بما يواجه فى مجتمعه من الأحداث والفجائع، فانعكس اللون الأسود فى شــعره أكثر من غيره واتّخذ تعبيراً ســلبياً عن تجارب الشاعر وحزنه أو حزن شعبه كما وصف به الشــاعر ظلم الحكام وفســادهم وقد يستخدمه للتعبير عما حلّ به من اليأس إثر الحياة وغلبة الموت عليها.

قد يقابل الأســود والأبيض كشــفاً عن التضادّ بين الخير والشرّ فى الكون وأحياناً يتأثر الشــاعر بتراثه الأدبى القديم ويضفى الأســود طابعاً تراثياً فى الدلالة على المأتم والحداد أو تعبيراً عن جمال المرأة فى عيونها وشعرها.

أما الأبيض فمن أبرز معانيه الرمزية ودلالاته الإيحائية هو النور والبراءة والصمت والطهارة والهدوء. اســتخدمه الســيّاب للدلالــة على القدرة والطاقــة عند المجاهدين وطالبى السلام كما يرسم جمال المرأة وحسنها وطهارة الحبيب وبراءتها مستعيناً باللون الأبيض.

وقد يأتى البياض تعبيراً عن الحرب ودمارها تصويراً لتقابل الخير والشــر. كما أنّ النماذج التى استخدم فيها الشاعر اللون الأبيض تبيّن أنه يتّخذ دلالات سلبية كالأسود.

المصادر والمراجع

آل موســى، على على. ٢٠٠٨م. شــعرية القلق عند بدرشاكر السيّاب. الطبعة الأولى. بيروت: دار الأولى.

توفيق، حســن. ١٩٧٩م. شــعر بدر شاكر الســيّاب دراســة فنية وفكرية. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

دیـاب، محمد حافظ. ١٩٨٤م. «جماليات اللون فى القصيدة العربية». مجلة الفصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. العدد٥.

السيّاب، بدر شاكر. ٢٠٠٠م. الأعمال الشعرية الكاملة. الطبعة الثالثة. بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر.

شـفيعى كدكنـى، محمد رضا. ١٣٧٠ش. صور خيال در شـعر فارسـى. الطبعـة الرابعة. طهران: انتشارات آگاه.

شى جى وا، هيداكى. ١٣٧٧ش. همنشينى رنگ‌ها. ترجمه فريال دهدشتى، ناصر پورپيرار. الطبعة الأولى. طهران: نشر كارنگ.

صائغ، وجدانغ. ٢٠٠٣م. الصور الاسـتعارية فى الشـعر العربى الحديث. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

عباس، إحسان. ١٩٨٣م. بدر شـاكر السيّاب دراسة فى حياتة وشعره. الطبعة الخامسة. بيروت: دار الشروق.

عصفـور، جابر. ١٩٨٣م. الصورة الفنيـة فى التراث النقدى والبلاغى عند العرب. الطبعة الأولى. (لامک):دار الحوار.

علىأكبر زاده، مهدى. ١٣٧٥ش. رنگ وتربيت. الطبعة الثانية. طهران: انتشارات ميشا.

محمد عبيدات، عدنان. ٢٠٠٤م. الأداء باللون فى شـعر المتنبى. مجلة دراسـات العلوم الإنسـانية والاجتماعية. العدد ٣.

لوشـر، ماكس. ١٣٨٦ش. روان‌شناسـى رنگ‌هـا. ترجمه ويدا ابـى‌زاده. الطبعـة ٢٣. طهران: انتشارات درسا.

محمـد على، إبراهيم. ٢٠٠١م. اللون فى الشـعر العربى قبل الإسـلام قـراءة ميثولوجية. الطبعة الأولى. طابلس: جروس برس.